توماس كارليل

نظره الى التاريخ

للأستاذ محمود محمد

« ليس التاريخ العام فى روحه ومغزاه — تاريخ ما أحدث الانسان فى هذا العالم — إلا تاريخ عظماء الرجال الذين ظهروا فى هذه الدنيا ، فقد كانوا أئمة ، وكانوا مثلاً وكانوا قدوة لغيرهم ، بل كانوا مبدعين لكل ما مارس الانسان من أعمال ، وكل ما حقق من أمانى . إن كل ما نراه قائماً فى هذا الوجود كاملا متقناً إنما هو نتيجة مادية محسوسة ، وتحقيق عملى مجسم لكل ما جال فى رؤوس أولئك الرجال من أفكار ، أولئك الرجال الذين هبطوا الى هذا الوجود فكان تاريخهم بحق هو لحمة التاريخ وسداه »

بهذه العبارة يفتتح كارليل كتابه « الأبطال وعبادة البطولة » فيلخص لنا نظريته فى التاريخ . يرى كارليل أن الفرد هو كل شىء ، وأن قادة الشعوب هم خالقوها ومكيفوها ، يؤثر الفرد فى الجماعة ولا يتأثر بها . والبطولة فى نظره تتقمص فى فحول الرجال على صور شتى ؛ فالرسول والشاعر والكاتب والمصلح والفيلسوف كل هؤلاء من طينة واحدة ، ليس بينهم من خلاف ، اللهم الا فى الهيئة التى يكتسون والأسلوب الذى ينتحون « ويصح لنا أن نعتبر أمثال هؤلاء الرجال من فصيلة فوق البشر ، فصيلة غير آدمية ، فكلهم رسول مبعوث الينا برسالة خاصة من الأبدية المجهولة ، من الحقائق الباطنة للأشياء ، لا تحجبها عنه أباطيل الناس ، وكيف ذلك والحقيقة تسطع على عينيه حتى يكاد يعشى لنورها ... الرجل العظيم مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون ، وهو جزء من الحقائق الأولية للأشياء » لا تعميه عن واجبه جهالة عصره أو نقص فى نفسه ؛ هو يرى الى الحقيقة الثابتة ، الى الحقيقة الحية . ومن هذا الحق يستمد قوته ، والى هذا الحق تصغى الجماهير ، رسالته أبدية مشعة « وأعمال الرجال ! خبئها تحت رواسى الجبال ، أو فى أعشاش البوم ، فهى لا تموت ولن تموت »

ويرى كارليل أن الناس مسوقون بطبيعتهم الى عبادة البطولة « وأن الاعجاب بمن هم أعلى منا إدراكاً لأسمى شعور يتردد فى الصدور ، وليس روح الوجود وحياة الشعوب وكيان الجماعة الانسانية إلا خضوعا للعظماء وعبادة لأفكار العظماء »

وهذا الشعور كامن فى الانسان فى كل زمان ومكان حتى فى هذا العصر الحديث الذى تحاول فيه الانسانية أن تتخلص من سلطة الزعماء وتقيم الديمقراطية مكان الديكتاتورية كلما اتسع المجال وأتيحت الفرص

لم يكن كارليل مبتدعاً فى الرأى حين رفع البطولة الى هذا المقام وقدسها هذا التقديس ، فقد سبقه الى ذلك هيجل الفيلسوف الألمانى إذ كان يقول : إن وراء كل أمة أو عصر أو مدنية « فكرة » تسيرها . هذه الفكرة هى السمة الكبرى لذلك العصر أو تلك المدنية ، منها تتفرع واليها تنتهى جميع مناحى التفكير من فلسفة أو دين أو فن أو أخلاق . هذه « الفكرة » عند هيجل هى « روح البطولة » عند كارليل . ومن ثم نرى أن كارليل كان أشد وضوحاً وأدق تعبيراً من صاحبه الألمانى ، وقد

أنه ليس فى الموضوع شىء خارج عن ذات القصيدة الواحدة التى يقرأها القراء فيصورونها صوراً مختلفة ، ولكن الحق هو أن اختلافهم بالقياس إلى هذه العوامل هو سبب اختلافهم فى كل شىء ، حتى تفسير القصيدة وتعيين مدلولات مفرداتها فيه مجال واسع للاختلاف بين القراء تبعاً لاختلاف مؤهلاتهم الخاصة ، فمن قرأ كثيراً من شعر شاعر فهم ألفاظه فهماً مخالفاً لفهم من لم يقرأ له أو قرأ قليلا . وهكذا فكيفية فهم القارىء للقصيدة مثلا يتوقف على استعداده الذاتى وكيفية ترقيه ، وكيفية حيازته للمعانى الاجتماعية الموروثة والفرص التى تهيأت له لاستخدام هذه المعانى منسقة ، والبيئة التى نشأ فيها وحاكاها ، وتنازع استعداده الذاتى والنقل السيطرة على فكره وغلبة أحدهما للآخر ، وما يعرف من خلق صاحبها وشعره ، ولأن الحكم الأدبى يتوقف على هذا كله كان أكثر الأحكام تعرضاً للزلل وأقربها من الخطأ ووجب على من يتعرض له أن يحذر حذراً تاماً ؟

السيد محمد نوفل
بكلية الآداب

أراد أن يزيد وضوحاً ويتخلص من غموض « الفكرة » تماماً ، فجسد « روح البطولة » فى شخص « البطل » فانتقل بذلك من المعقول الى المحسوس ، ومن الفكرة المجردة الى الحقيقة الملموسة

ومع ذلك فان كارليل لم يتخلص من تجريد الفكرة تماماً فان هذا « البطل » ، هذا « الكائن الحى » الذى تتجسد فيه الفكرة هو فى ذاته معنى مجرد تتجمع فيه فروع الحياة الشتيتة . البطل فى نظر كارليل يمثل المدنية التى يعيش فيها ، ورأى البطل نبراس يهتدى به بنو عصره . فلو أردنا معرفة تاريخ عصر من العصور بحثنا عن زعيمه وقائده . ولا يريدنا كارليل فى دراسة هذا الزعيم أن ندرس تاريخ حياته ومجراها وإنما واجبنا أن نحلل آراءه ومعتقداته حتى نستطيع أن نفهم مدنية العصر الذى نشأ فيه بمظاهرها المختلفة ، لأن المدنية — كما كان يرى — كل لا يتجزأ لها مرمى واحد ومعنى واحد

روح البطولة هى رائد التاريخ ومنشأ المدنيات ، ومجدة الحياة الانسانية ، وما دامت كذلك منبع كل حركة فلا ينبغى أن نفهم التاريخ إلا عن طريقها وبوساطتها . ليضع علماء الاجتماع ماشاءوا من القواعد والقوانين ، وليضع رجال السياسة ما شاءوا من نظم ودساتير ، وليفرض علينا المؤرخون ما شاءوا من أسباب تسير هذا العالم ، فليس الانسان بكائن جامد تكيفه قاعدة ، ويعبر عنه بقانون ، وإنما هو روح حى يفكر ويشعر ويتأثر ، يخضع لافذاذ الرجال كلما ظهروا برغم كل قانون

وأحسن مثال يتمثل فيه بكل جلاء ، نظر كارليل للتاريخ كتابه عن « كرومويل » . أراد كارليل أن يؤرخ البيوريتانية ، فكتب عن كرومويل زعيمها الأكبر ، وحاول لوائها تاريخاً مفصلا تكاد حين تقرأه تسمع كلمات الرجل ونبرات صوته وتتخيل صورته ورسمه . يعرض عليك المؤلف صورة واضحة يضعها أمام ناظريك لتبلغ من قرارة نفسك بقدر ما فيها من قوة وتأثير ، ولا يفرض عليك رأياً بعينه ولا فكرة بذاتها ، يعرض عليك الحقيقة مجردة من غير تعليق ، فلا ترى المؤلف ولا أثراً من نفسه ، كان البيوريتان يتطلعون الى إنشاء حكومة على دينهم ومبادئهم فوجدوا فى كرومويل الرجل الذى تتجسد فيه ميولهم واهواؤهم ، فوضعوه على رأس حكومتهم ورضوا به حاكما مستبداً ، ذلك لأن كرومويل بطل تتمثل فيه آراء جيل كامل وأمة بأسرها

كان كارليل يرى فى كرومويل مثلاً للبطولة الحق ، وينظر إلى الثورة الانجليزية التى قام بها نظرة الأعجاب ، لأنها كانت تقوم على أساس دينى متين ، ولكنا نجده فى كتابه عن « الثورة الفرنسية » لا ينظر بعين الرضا الى هذه الثورة لأنها لم تخضع لزعيم واحد يمثلها ويسير بها الى الأمام ، كما أن فلسفتها كانت فى صميمها غير دينية ، اندفع فيها الفرنسيون وراء غرائزهم الوحشية وعملوا على إشباع شهواتهم البهيمية واحلال الفوضى محل النظام

وظاهر أن كارليل لم يكن عادلا فى حكمه هذا . نعم كان فى الثورة الفرنسية كثير من الوحشية والهمجية ، ولكنا لا نستطيع أن ننكر أن فيها خيراً كثيراً ، وأنها وإن تكن ثورة غير دينية إلا أن الفلسفة التى كيفتها كانت تنطوى على كثير من المبادئ القديمة ، وإذا كانت الثورة الأنجليزية قد خدمت انجلترا فان الثورة الفرنسية قد خدمت العالم أجمع ، وما تزال تخدمه الى يومنا هذا

وكما انقلب كارليل على الثورة الفرنسية لخروجها على الدين ، فهو كذلك ثائر على انجلترا الحديثة لأهمالها هذا الجانب الهام فى حياتها العامة ، ثائر على هذه الديمقراطية الواسعة التى تفسح المجال لكل من هب ودب ليكون ذا رأى محترم وقول مسموع ، وليس من سبيل الى خلاص البلاد إلا بعد أن تسلم زمام أمورها لزعمائها غير منازعين

* * *

وهنا نقف عند هذا الحد من بسط آراء كارليل فى البطولة وأثرها فى التاريخ ونسائل أنفسنا : هل كان كارليل مصيباً حينما رفع أفذاذ الرجال الى هذا الحد من القوة وهذه المكانة من التقديس ؟

إن من يتصفح تاريخ الحياة وتقدمها يرى أن الانسانية فى كل عصورها تنقسم الى شطرين : رعية كبيرة وطائفة قليلة من الرعاة ، تدق هذه الرعية أمامها ، هؤلاء الرعاة هم أدوات التقدم الانسانى وهم عظماء الرجال الذين يمثلون الآداب والآراء التى هى على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها بمثابة ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ، أى إنها أثر من آثار الجماعة والبيئة أكثر من أن تكون أثراً من آثار الفرد الذى رآها ونشرها بين الناس .

وإذا كان الأمر كذلك فليس من الحق في شيء أن ننسى الجماعة التي هي المؤثر الأول في ظهور الآداب والآراء والفلسفة، ونقصر عنايتنا على الفرد الذي كان مظهراً لهذه الآداب وتلك الآراء فنمحو الجماعة محواً ونهملها إهمالاً، إذ الفرد لم ينشئ نفسه وإنما الجماعة كلها متعاونة متضافرة على تنشئته وتربية عقله وجسمه وشعوره، فهو صورة منها وظاهرة من ظواهرها. الفرد مدين بلغته ودينه وخلقه الى الجماعة، إذن فليس من البحث العلمي القيم في شيء أن نقدس الأفراد كل هذا التقديس ونحتقر الجماعة كل هذا الاحتقار. وأنا لو صورنا لأنفسنا طائفة من أوساط الناس متوسطي الذكاء ليس لهم مواهب خاصة ولا عقلية ممتازة قد رحلوا الى جزيرة جرداء ليس فيها أثر من آثار المدنية ولا عمل من أعمال الانسان أدركنا بسهولة كيف يظهر سريعاً من بينهم المخترع والفيلسوف والسياسي والقائد، ولا يلبثون أن يعيدوا في خلال جيل أو جيلين تاريخ التقدم الانساني كله، ويصبح هؤلاء الأوساط صورة مصغرة من نيوتن ووطسن وكروميل ونابليون وغيرهم، لأنهم في حياتهم الأولى كانت تعوزهم الفرصة التي أتاحتها لهم الجزيرة الجرداء، فظهرت عبقرياتهم بعد أن كان مقضياً عليها بالموت والفناء

ويتبين لنا من هذا أن الانسانية لا تتقدم بظهور الرجال، وإنما يظهر الرجال لأنها تريد أن تتقدم، وفي علم الحياة نظرية ثابتة تقول إن الوظيفة تخلق العضو ولا يخلق العضو الوظيفة، فالانسان لا يمشي لأن له قدمين، وإنما له قدمان لأنه أراد أن يمشي، ولا ينظر لأن له عينين ولكنه ذو عينين لأنه أراد أن ينظر.

ومن يتدبر التاريخ يرَ أن الانسانية تعتريها فترات من الجمود تعقبها النهضات التي تظهر فيها الشخصيات البارزة، ولا تعلل هذه الظاهرة إلا بأن الظروف الاجتماعية والزمنية في فترات الجمود تخالف مثيلاتها في فترات النهضات، فالأولى لا تدعو إلى ظهور الرجال بينما الثانية تتطلب الرجال العاملين وتخلقهم خلقاً. فاذا صح لنا أن نقول إن النهضة أوجدت أبطالاً لا يصح أن نقول إن الأبطال أوجدوا النهضة

ولكن كارليل أراد أن ينزههم عن البشرية ويرفعهم الى مصاف الآلهة.

محمود محمد